

تفسير البحر المحيط

@ 62 { لَآءَ تَخَذُوكَ } جواباً له ، والتقدير وا [] { إِذَا } أي إن افتتنت وافتريت
{ لَآءَ تَخَذُوكَ } ولا اتخذوك في معنى ليتخذونك كقوله { وَلَئِنَّ أَرْسَلَ نَارًا رِيحًا
فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّطَالَتْ سُورًا } أي ليظنن لأن { إِذَا } تقتضي الاستقبال لأنها من
حيث المعنى جزاء فيقدر موضعها بأداة الشرط . .

وقال الزمخشري : { وَإِذَا لَآءَ تَخَذُوكَ } أي ولو اتبعت مرادهم { لَآءَ تَخَذُوكَ }
خَلِيلًا } ولكنك لهم ولياً ، ولخرجت من ولايتي انتهى . وهو تفسير معنى لا إن {
لَآءَ تَخَذُوكَ } جواب لو محذوفة . قال الزمخشري : { وَلَوْ * لَا انْفِصَامَ * }
ثَبَّتْ تَنَازَكَ } ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا لقد كدت تترك إلهم لقاربت أن تميل إلى خدعهم
ومكرهم ، وهذا تهيج من [] له وفضل تثبيت ، وفي ذلك لطف للمؤمنين إذن لو قاربت تركن
إلهم أدنى ركنة { إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ } أي { لَأَذَقْنَاكَ
عَذَابَ الآخِرَةِ وَعَذَابَ الْقَبْرِ مَضَاعِفِينَ . فإن قلت : كيف حقيقة هذا الكلام ؟ قلت : أصله {
لَأَذَقْنَاكَ } عذاب الحياة وعذاب الممات لأن العذاب عذابان ، عذاب في الممات وهو عذاب
القبر ، وعذاب في حياة الآخرة وهو عذاب النار ، والضعف يوصف به نحو قوله تعالى : {
قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدَّ } يعني مضاعفاً ، فكان أصل الكلام { لَأَذَقْنَاكَ }
عذاباً ضعفاً في الحياة ، وعذاباً ضعفاً في الممات ، ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة
مقامه وهو الضعف ، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف ، فقيل { ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ
الْمَمَاتِ } كما قيل { لَأَذَقْنَاكَ } أليم الحياة وأليم الممات ، ويجوز أن يراد بضعف
الحياة عذاب الحياة الدنيا ، وبضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار
والمعنى لضاعفنا لك العذاب المعجل للعمارة في الحياة الدنيا . وما نؤخره لما بعد الموت
انتهى . .

وجواب { لَوْ * لَا } يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعه لوجود ما قبله ، فمقاربة الركون لم
تقع منه فضلاً عن الركون والمانع من ذلك هو وجود تثبيت [] . وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق
وابن مصرف : { تَرَكْنُ } بضم الكاف مضارع ركن بفتحها وانتصب { شَيْئًا } على المصدر .
وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : يريد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات على
معنى أن ما يستحقه من أذن من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنا نضعفه . وذهب ابن الأنباري
إلى أن المعنى لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت إلى قولهم بسبب فعلهم إليه مجازاً
واتساعاً كما تقول للرجل : كدت تقتل نفسك أي كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت . .

وقال ابن عباس : كان الرسول صلى الله عليه وسلم (معصوماً ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه انتهى . واللام في { لَأَذَقْنَاكَ } جواب قسم محذوف قبل { إِذًا } أي والله إن حصل ركون ليكونن كذا ، والقول في { لَأَذَقْنَاكَ } كالقول في { لَأَسْتَسْخِذُوكَ } من وقوع الماضي موضع المضارع الداخل عليه اللام والنون ، وممن نص على أن اللام في { لَأَسْتَسْخِذُوكَ } و { لَأَذَقْنَاكَ } هي لام القسم الحوفي . وقال الزمخشري : وفي ذكر الكيدودة وتعليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بيّن على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته انتهى . ومن ذلك { عَظِيمًا يَا نَسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ } الآية . قال الزمخشري : وفيه أدنى مداهنة للغواة مضادة للهجرة عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله انتهى . .

وروي أنه لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (: اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) . قال حزمي : الضمير في { وَإِنْ كَادُوا } ليهود المدينة وناحيتها كحيي بن أخطب وغيره ، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم) ، فقالوا : إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء ، وإنما أرض الأنبياء الشام ، ولكنك تخاف الروم فإن كنت نبياً فإخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء فنزلت ، وأخبر تعالى أنه لو خرج لم يلبثهم بعد { إِلَّا قَلِيلًا } . وحكى النقاش أنه خرج بسبب قولهم وعسكر بذي الحليفة وأقام ينتظر أصحابه فنزلت ورجع . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لم يقع في سيرة ولا في كتاب يعتمد عليه ، وذو الحليفة ليس في طريق الشام من المدينة انتهى . .

وقالت فرقة : الضمير لقريش قاله ابن عباس وقتادة ، واستفزازهم هو ما ذهبوا إليه من إخراجهم من مكة كما ذهبوا إلى حصره في الشعب ، ووقع استفزازهم